فن القرآن

تشبيهات القرآن -٢-

لمحمد أحمد الباعي الباعي يومئذ

المدرس بدار العلوم

ولم تقف قوة القرآن فى إخراج تشبيهاته عند الحدود التى رسمناها بل تعدتها إلى درجات أخر ذات روعة وجلال، من ذلك أنه كان إذا أتى بالمشبه أمرا غير معتاد انتزع المشبه به مما جرت به العادة فكان كثير الوقوع. قال تعالى فى قصة عاد: « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » والعارف أن بلاد العرب بلاد نخيل وأن من رياحها ما كان دبورا مدمراً، وأنهم كانوا يعلمون أن منازل عاد كانت أكثر بلادهم نخيلا، يدرك مبلغ هذا التشبيه من نفوسهم . وقال فى السماء تشقق عن حمرة وان: « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » أى حمراء ذائبة كالدهن أو كالوردة تكون فى حمرتها وطراءتها كالجلد الأحمر المدبوغ. فيكون هنا تشبيه داخل تشبيه وكلا الشيئين كان للعرب به عهد واختبار . وقال: « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » وليس أظهر فى بيان السهولة فى نتق الجبل من جعله كالظلة يرفعها الانسان فوق رأسه دون كلفة ولا عناء . ومنها أنه كان إذا أتى بالمشبه أمرا غائباً عن العيان وإن كان من شأنه أن يحس، أو معنويا يحتاج فى تصوره إلى تدبر وتفكير أعقبه بالمشبه به معروفاً بالبداهة دون روية ولا إجهاد ، فالأول كقوله تعالى يصف سعة الجنة: « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » فقد أخرجها على غيبها مخرج المعاين المألوف للآذان، والثانى كقوله سبحانه فى قصة عاد أيضاً: « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » فان خواء النخل يبدأ كل أجوافها تخرج إلى البديهة إدراك حال الأجساد وقد غادرتها الأرواح . وكذا قوله فيمن اتخذوا من دون الله أولياء: « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون »

وقوله فيمن حملوا التوراة ولم ينتفعوا بها كأنهم لم يحملوها : «كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » وليست الآيتان فى حاجة إلى تعليق .

ولقد كان القرآن يتصرف فى الحال الواحدة بالتشبيه تصرفاً واسع الأفق رحب الميدان فيكون فى كل حالته مصيباً للغرض أشد إصابة موفيا بما يريد أكمل إيفاء : خذ لذلك مثلا تشبيهه المنافقين بشبهين متتاليين حيث يقول: « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير » وخذ لذلك أيضاً تشبيهه لأعمال الكافرين كذلك حيث يقول : « الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » فقد سلبها التشبيه الأول المنفعة على ظلمتها بها وجردها الثانى من أن تكون محل هداية ورشاد . وانظر تشبيهه فى الشرك وما يفعل حيث يقول: « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » فهو لاحالة صائر إلى هلاك ليس منه هلاك ، وكذا تشبيهه فى التفرقة بين الله جل شأنه وبين ما أشركوا به من أصنام إذ يقول: « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله . . بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » ثم انظره فى هذه الناحية يشبه الشرك تتنازعه الآلهة والموحد يخلص إلى الواحد موازناً بينهما حيث يقول : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل هل يستويان مثلا . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » بل انظره يشبه كلمة التوحيد فى نتاجها وكلمة الشرك فى عقمها إذ يقول: « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا

وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » وعلى هذا النحو يقول فيمن ينفق ماله رئاء الناس وفيمن ينفقه ابتغاء مرضاة الله : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم ، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » ثم يعود ثانية إلى تمثيل ما يصنع المن والرئاء بالصدقات من سحق وتدمير فيقول عقب هذه الآيات: «أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » وانظر تشبيهه قبل ذلك فيمن ينفقون أموالهم فى سبيل الله وما قدر لهم من مضاعف الأجر حيث يقول : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » ولهذه المناسبة انظر كيف تدرج من هذه الآية إلى الآيات السابقة فى المن والأذى حيث قال بينهما ومما أشده التحاما وأوثقه رباطا: « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم » .

بل قد كان للقرآن فى التشبيه فى المعنى الواحد — لا فى الحال الواحدة — تصرف يجرى بين قبض وبسط وتساو ، فيبلغ فى كل الغرض الذى يريد والمرمى الذى يقصد فى قوة وسداد: ومن ذلك ما جاء فى وصفه هذه الحياة وأن كل ما فيها من زخرف وغرور إن هو إلا متاع لا بد مستلم إلى فناء . قال فيها موجزا فى سورة الكهف: « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا » وقال فيها مساويا فى سورة الحديد: « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » وقال فيها فى سورة يونس مطنبا: « يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ، إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » . . فهذه الآية الأخيرة قد أتت فى

تشبيه المفرد بالمركب مما ليس له مثيل ولا مقارب فى كلام الناس ،وأبى الناس أن يذللوا هذا النوع وبه ما ترى من شدة النكيرة وصعوبة الانقياد وهو فى القرآن أكثر من أخويه : تشبيه المفرد بالمفرد والمركب بالمركب: أما تشبيه المركب بالمفرد فليس فى القرآن منه شىء،لأنه ينافى والطريق الصحيح للتشبيه،إذ ليس فى قوة مفرد أن يزيدك بيانا على ما تفهمه من تركيب اللهم إلا إذا كان المفرد مركب المعنى أو جاء التشبيه على سبيل الاستعارة التمثيلية فى ضرب الأمثال حيث يعتمد المثل على قصة تجعل المشبه به على قصره أطول من المشبه وهما امتد به التركيب،على أن هذا ليس من التشبيه بالمعنى المصطلح عليه فى شىء،وإذا فهو خارج بذاته لا بما تلمسناه له من أسباب:فلا حجة به علينا ولا ضير علينا منه .

والقول فى تشبيه القرآن حافل طويل يعجز الانسان عن الاحاطة بأمثلته ويحار فى تعديد المزايا لكل مثال، فلنقتطف منه عند هذا القدر خاتمين إياه بآية كريمة تلاحق فيها التشبيه بقوة وغزارة كالموج يدرك بعضه بعضا فى شدة دفع وحسن التئام وهى قوله تعالى « قل من رب السموات والأرض ،قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً،قل هل يستوى الأعمى والبصير،أم هل تستوى الظلمات والنور ،أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم،قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار . أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال »

فى زهرة . .

بكاك الندى حتى ابتسمت ؛ وإنما ... كما تبسم الحسناء يبكى لها الصب

وماس بك الغصن الرفيق فزنته ... كما زان در العقد جيداً به عجب

فأعجبتنى حتى تطفتك هكذا ... كؤلؤة من حولها لؤلؤ رطب

وأكرمت منواك الكريم ؛ وإننى ... على رغم ضيق الحال لى خلق رحب

ومالى أراك الآن تدوين فى يدى ... وينفد فى هذا المدى ريقك العذب ؟

أهل أنت كالانسان يؤلمك النوى ؟ ... وهل أنت كالانسان ينعشك القرب ؟

أرى لك جسماً ناعماً غير أنه ... ضعيف بلاداء ، كأن مسه الجدب

فيا ملء عينى أنت قد طبت ظاهراً ... فهل طابت منك القلب، أم خبث القلب ؟

دعينى أفتش .. آه . فى القلب «نحلة» ... وذلك عيب فيك يستره الثوب

أبى الله أن يعطى الكمال لكائن ... ولكن يزيد القدر إن نقص العيب

بالناس

محمد السيد على شحاته

نفى التولد الذاتى

للأستاذ محمود البتيتى المدرس بدار العلوم

يزعم بعض الفلاسفة والملاحدة أن الحياة تولدت فى الكائنات الحية من المادة نفسها ويدعون بناء على ذلك أن المادة قديمة ، وأن الحياة جرت فيها على نواميس خاصة كالجاذبية وميل بعض العناصر إلى بعض على نسب معينة ، فالماء تكون على زعمهم من تجاذب ذرة من الأوكسجين واثنتين من الأيدروجين ، وهكذا بقية الكائنات الحية ، تكونت من تلقاء نفسها على حسب نواميسهم . وهو زعم لا يقوم على أساس من المنطق ، ولا يعتمد على دعائم من البرهان .

إذ كيف تخضع المادة لهذه النواميس من تلقاء نفسها ؟ . بل كيف تحافظ على هذا الخضوع بلا خلل ولا اضطراب ، حتى تتكون منها هذه العوالم الحية البالغة فى الدقة والنظام حدا تحار فيه العقول ؟ وأين هذه القوة التى تقهر هذه المادة قهرا داعما على سلوك نظام معين فى تجمعها وانفصالها حتى لا نرى خللا فى جملة الكون ، ولا تفاوتا بين عناصر النوع الواحد ؟

ومن أين للمادة وهى خلو فى ذاتها من العقل والحكمة أن تهتدى إلى ذلك النسق المطرد فتخرج هذه المجموعات الشمسية والنباتية والحيوانية على هذه الصورة التى تصل بعضها ببعض ، وتجعل بعضها خادما لبعض ، وتوثق الروابط وتحكم العلائق بين أجزائها ، حتى تقوم الحياة على أمتن أساس وتمضى إلى ما شاء ربها على أحكم نظام ، وفى أحسن تقويم ؟

ومن أين للمادة هذه الحكمة السامية التى تؤلف بين عناصر الحيوان فتجعل منها كائنا حيا تحار فى صنعه الأفهام ؟ وأنى لها أن تلهم حبة الحنظل وهى بجانب حبة البطيخ أن تسعى كل منها إلى غذائها فتجذب الأولى عناصر المرارة ، وتجذب الثانية عناصر الحلاوة ؟

وكيف اهتدت المادة إلى أن تجعل أهم أعضاء الحيوان (القلب والرئتين والمخ وأجزائه) فى أمنع مكان من الجسم ، حتى لا يصيبها العطب فيسرع إلى صاحبها الفناء ، فتحوط القلب والرئتين بأضلاع الصدر من خلف ومن أمام ، وتحوط المخ وأجزاءه بعظام الجمجمة ، ثم لا تكتفى بذلك بل تحوط العظام بجلد صفيق ، ثم لا تقف عند ذلك الحد : بل تغطى الجلد بشعر كثيف ؟ وكيف اهتدت المادة إلى تركيب (العين) وهو الذى تحار فيه العقول وتتقاصر دونه الجهود ، ويتخذه العلم قبل اختراع آلة التصوير الشمسى ، ثم إذا عطبت العين وقف العلم أمامها حائرا ، وظل الأطباء تلقاءها مبهوتين لا يدرون ماذا يفعلون ، ولسان حالهم شاهد بقدرة الخلاق العليم ؟

لقد جد العلماء أزمانا طوالا ، حتى قيل إنهم فى العصر الحديث اهتدوا إلى وحدة الجسم وهى (الخلية) فإذا أجدى عليهم ذلك الجهد الطويل ؟ هل استطاعوا بعلومهم ومعاملهم أن يضعوا خلية إلى غيرها ، ويؤلفوا بين الخلايا على صورة تبعث فيها الحياة ، ويكونوا من مجموع هذه الخلايا أحقر حيوان ؟ — أستغفر الله — بل أقل عضو من الحيوان ؟ وهل استطاعوا وفى أيديهم أزمة العلم الحديث أن يردوا الحياة ؟ إن كل محاولاتهم فى ذلك السبيل تذهب هباء أمام عظمة الموت : وتقف مكتوفة أمام قدرة الله الحكيم الخبير ، ويتخذ منها العقلاء مصداقا لقوله تعالى : (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) .

المادة أيها الماديون لا تبعث الحياة فى كائن ما ، لأنها خلو من الحياة ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، والمادة — أيها القوم — لا تحوى هذه القوى التى تنسبونها إليها ، ولا تستطيع القيام بما عجزتم أنتم عن القيام به وأنتم لا تملك جزءا من هذه المادة فى أحسن صورها ، وعلى أكمل أطوارها ، وكيف (وأنتم من القائلين بناموس النشوء والارتقاء) تنسبون للمادة فى أحقر أحوالها ما لا تستطيعه هذه المادة فى أكمل مظاهرها ؟

حكموا العقل قبل أن تتورطوا فى هذه الأباطيل ، فأن فعلتم وجدتم الحياة تجرى — حقيقة — على نسق لا يختلف ، وعلى مقتضى نواميس لا تضطرب : ولكن ابحثوا فى المادة التى تعبدونها عن هذه النواميس ، فإذا ما أخلقت هذه المادة ظنونكم ، فالتمسوا هذه النواميس من طريق غير الذى سلكتموه ، إنكم يومئذ تجدونها ولكن وراء هذا العالم الذى فتنتم به ، تجدونها بيد القوى القادر ، الذى تفرد بالقدم ووجوب الوجود : « الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » — « ذلكم الله ربكم — له الملك وهو على كل شىء قدير » .

قد تكون فيما قدمناه الدليل الكافى على نفى التولد الذاتى ، ولكنى أنقل هنا (بتصرف) ما جاء فى كتاب (دلائل التوحيد للعلامة القاسمى) فأن فيه أدلة أخرى على رد كيد المبطلين : —

« إن التولد الذاتى مستحيل من أوجه كثيرة وإليك بعضها :

١ — إن الحياة فى الكائنات الحية إما أن تكون قديمة لا أول لوجودها ، وإما أن تكون حادثة ، والأول باطل فقد دلت تجارب علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) على خلو المادة من الحياة قبل أزمنة عينوها : وإذا بطل كون الحياة قديمة وجب أن تكون حادثة إذ لا واسطة بين القديم والحديث ، وإذا ثبت أنها حادثة صارت من جملة الممكنات ، وهذه

الممكنات ليس لها وجود من ذاتها (كما هو مقرر فى مواضعه) وحينئذ لابد من اسنادها فى الحدوث إلى موجد ، وذلك الموجد هو الواجب ، هو الله الذى لا إله إلا هو ، ولا يمكن أن تحدث الحياة من تلقاء نفسها .

٢ — ثبت من الوجه السابق أن الحياة حادثة فى الكائنات الحية ، والعقل يقضى باحتياج الحادث إلى محدث ، فالحياة محتاجة إلى من أحدثها ولايجوز أن تكون الأحياء قد استمدت الحياة من المادة. فالمادة ، كما أسلفنا ، كانت خلوا من الحياة فلو كانت علة لحياة الكائنات ، لما جاز أن تخلو من الحياة وقتا ما لأنها — كما يزعمون — علة والحياة معلولة ، والعلة لا تتخلف عن المعلول البتة .

ومن كل ماتقدم يتنفى القول بالتولد الذاتى ، ويثبت احتياج العالم إلى موجد ، وهو واجب الوجود سبحانه وتعالى ؟

محمود البتيتى

رثاء عصفور

أيعد هذه السجات الخاطفات بين الأرض والشجر والسماء وهذه اليقظة المرحة الصافرة .

تستقبل بها الفجر . وتودع الشمس . وترحب بالغد ، وهذا الشباب الطرير القادر . الذى لا ينال منه طول العمر . ولا جهاد العيش ! . وهذه النزوة تنبعث من رأسك الفارغ . قد لا يها الجو والعش صفيراً ونداء ؛ وهذه الخفة المتوقدة الحبيبة لا تستقر معها على حال

أيعد هذه الحياة الطروبة اللاهية . يقدر عليك أن تموت فى شبر ماء ؟ يلهو بك طفل غر يحب الاستطلاع والتجربة . فيكون خاتمة مطافك الواسع . الغرق فى إبريق ؟! لقد كانت لى فى حياتك وموتك عبرة .

يموت الانسان فلا يبقى له من الدنيا غير بضعة أشياء ينام فيها الى الأبد !

عبد الحميد على أبو العطا